

الباب الحادي والثلاثون: في مناقب الصالحين وكرامات الأولياء

رضي الله عنهم

اعلم أن كرامات الأولياء لا تنكر، ومناقبهم أكثر من أن تحصر، نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم في زمرة نبينا محمد ﷺ يوم المحشر، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حكاية: قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: احتبس عنا المطر بالبصرة، فخرجنا نستسقي مراراً فلم نر للإجابة أثراً، فخرجت أنا وعطاء السلمي، وثابت البناني، ويحيى البكاء، ومحمد بن واسع، وأبو محمد السخيتاني، وحبيب الفارسي، وحسان بن ثابت بن أبي سنان، وعتبة الغلام، وصالح المزني حتى إذا صرنا إلى المصلى بالبصرة خرج الصبيان من المكاتب^(١) ثم استسقين فلم نر للإجابة أثراً، حتى انتصف النهار، وانصرف الناس، وبقيت أنا وثابت البناني بالمصلى، فلما أظلم الليل إذا أنا بعبد أسود مليح، رقيق الساقين عليه جبة صوف. قومت ما عليه بدرهمين. فجاء بماء فتوضأ، ثم جاء إلى المحراب فصلى ركعتين خفيفتين. ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ومولاي إلى كم تردّ عبادك فيما لا يفعك، أنفد ما عندك، أم نقص ما في خزائنك؟ أقسمت عليك بحبك لي إلا ما أسقيننا غيثك الساعة. قال: فما أتم كلامه حتى تغيتم السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب. قال مالك: فتعرضت له، وقلت له: يا أسود أما تستحي مما قلت؟ قال: وما قلت؟ قلت: قولك بحبك لي وما يدريك أنه يحبك. قال: تَنَحَّ^(٢) عني يا مَنْ اشتغل عنه بنفسه، أفتراه بداني بذلك إلا لمحبته إياي؟ ثم قال: محبته لي على قدره، ومحبتي له على قدري. فقلت له: يرحمك الله أرفق قليلاً، فقال: إني مملوك على فرض من طاعة مالكي الصغير.

قال: فانصرف وجعلنا نفقو^(٣) أثره على البعد، حتى دخل دار نخاس، فلما أصبحنا أتينا النخاس فقلت: يرحمك الله عند غلام تبعه لنا للخدمة؟ قال: نعم عندي مائة غلام للبيع، فجعل يعرض علينا غلاماً بعد غلام حتى عرض علينا سبعين غلاماً فلم ألقى حبيبي فيهم. فقال: عودا إليّ في غير هذا الوقت، فلما أردنا الخروج من عنده، دخلنا حجرة خربة خلف داره وإذا بالأسود قائم يصلي. فقلت: حبيبي ورب الكعبة، فجئت إلى النخاس فقلت له: يعني هذا الغلام. فقال: يا أبا يحيى هذا الغلام ليست له همة في الليل إلا البكاء، وفي النهار إلا الخلوة والوحدة. فقلت له: لا بد من أخذه منك ولك الثمن، وما عليك منه. فدعاه فجاء وهو يتناحس فقال: خذه بما شئت بعد أن تبرئني من عيوبه كلها. فاشترته منه بعشرين ديناراً، وقلت له: ما اسمك؟ قال ميمون، فأخذت بيده أريد المنزل

(١) مفرداً مكتب: مكان تعليم الصبية (الكتاتيب).

(٢) تَنَحَّ: ابتعد.

(٣) فقو: تبع.

فالتفت إليّ، وقال: يا مولاي الصغير لماذا اشتريتني وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين؟ فقلت له: والله يا سيدي إنما اشتريتك لأخدمك بنفسي. قال: ولم ذلك؟ فقلت: ألسنت صاحبتنا البارحة بالمصلى؟ قال: بلى وقد اطلعت على ذلك. قلت: نعم وأنا الذي عارضتك البارحة في الكلام بالمصلى. قال: فجعل يمشي حتى أتى إلى مسجد فاستأذنتني ودخل المسجد فصلى فيه ركعتين خفيفتين، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ومولاي سر كان بيني وبينك، أطلعت عليه غيرك، فكيف يطيب الآن عيشي؟ أفسمت عليك بك إلا ما قبضتني إليك الساعة. ثم سجد فانتظرت ساعة فلم يرفع رأسه فجئت إليك وحركته فإذا هو قد مات رحمة الله تعالى عليه. قال: فمددت يديه ورجليه فإذا هو ضاحك مستبشر وقد غلب البياض على السواد، ووجهه كالقمر ليلة البدر، وإذا شاب قد دخل من الباب وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أعظم الله أجورنا وأجوركم من أخينا ميمون، هاكم الكفن، فناولني ثوبين ما رأيت مثلهما قط، فغسلناه، وكفناه بهما، ودفناه. قال مالك بن دينار: فقبيره نستسقي إلى الآن، ونطلب الحوائج من الله تعالى رحمة الله عليه.

وحكي عن حذيفة المرعشي رضي الله عنه، وكان قد خدم إبراهيم الخواص، رضي الله عنه وصحبه مدة فقبل له: ما أعجب ما رأيت منه؟ فقال: بقينا في طريق مكة أياماً لم نأكل طعاماً، فدخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خرب فنظر إليّ إبراهيم وقال: يا حذيفة أرى بك أثر الجوع. فقلت: هو كما ترى. فقال: عليّ بدواة وقرطاس فأحضرتهما إليه فكتب بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنى ثم قال:

أنا حامدٌ أنا شاكرٌ أنا ذاكرٌ	أنا جائعٌ أنا ضائعٌ أنا عاري
هي سئةٌ وأنا الضمينُ لنصفِها	فكنِ الضمينُ لنصفِها يا باري
مدحي لغيرك لهبٌ نارٍ خضتُها	فأجز عبيدك من لهبِ النارِ

قال حذيفة: ثم دفع إليّ الرقعة وقال: اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفعها إلى أول من يلقاك. فخرجت فأول من لقيني رجل على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فقرأها وبكى، وقال: ما فعل بصاحب هذه الرقعة؟ قلت: هو في المسجد الفلاني. فدفعت إليّ صرة فيها ستمائة درهم فأخذتها ومضيت فوجدت رجلاً فسألته: من هذا الراكب على البغلة؟ فقال: هو رجل نصراني. قال: فجئت إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال: لا تمس الدراهم فإن صاحبها يأتي الساعة، فلما كان بعد الساعة أقبل النصراني راكباً على بغلته، فترجل على باب المسجد ودخل فأكب على إبراهيم يقبل رأسه ويديه ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: فبكى إبراهيم الخواص فرحاً به وسروراً، وقال: الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. الصلاة والسلام.

وحكي أن بعضهم كان ملاحاً ببحر النيل المبارك بمصر. قال: كنت أعدي من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي، ومن الجانب الشرقي إلى الجانب الغربي. فبينما أنا ذات يوم في الزورق إذا بشيخ مشرق الوجه عليه مهابة. فقال: السلام عليكم. فرددت عليه السلام: فقال: أتحمطني إلى الجانب الغربي لله تعالى؟ فقلت: نعم. فطلع إلى الزورق وعديت به إلى الجانب الغربي، وكان على ذلك الفقير مرقة، ويده ركوة^(١) وعصا، فلما أراد الخروج من

(١) ركوة: وعاء للماء والسوائل.

الزورق قال: إني أريد أن أحملك أمانة. قلت: وما هي؟ قال: إذا كان غداً وقت الظهر تجدني عند تلك الشجرة ميتاً، وستنسى فإذا ألهمت فأتني وغسلني وكفّني في الكفن الذي تجده عند رأسي، وصلّ عليّ وادفني تحت الشجرة، وهذه المرقعة، والعصا والركوة يأتيك من يطلبها منك فأدفعها إليه ولا تحتقره.

قال الملاح: ثم ذهب وتركني. فتعجبت من قوله وبثّ تلك الليلة فلما أصبحت انتظرت الوقت الذي قال لي فلما جاء وقت الظهر نسيت، فما تذكرت إلا قريب العصر فسرت بسرعة فوجدته تحت الشجرة ميتاً؛ ووجدت كفناً جديداً عند رأسه تفوح منه رائحة المسك فغسلته وكفّته. فلما فرغت من غسله حضر عندي جماعة عظيمة لم أعرف منهم أحداً فصلينا عليه ودفنته تحت الشجرة كما عهد إليّ، ثم عدت إلى الجانب الشرقي وقد دخل الليل. فمنت فلما طلع الفجر وبانت الوجوه إذا أنا بشاب قد أقبل عليّ، فحققت النظر في وجهه فإذا هو من صبيان الملاهي كان يخدمهم فأقبل وعليه ثياب رفاق، وهو مخضوب الكفين وطاره^(١) تحت إبطه. فسلم عليّ فرددت عليه السلام فقال: يا ملاح، أنت فلان بن فلان؟ قلت: نعم. قال: هات الوديعة التي عندك. قلت: ومن أين لك هذا؟ قال: لا تسأل. فقلت: لا بد أن تخبرني. فقال: لا أدري، إلا أنني البارحة كنت في عرس فلان التاجر فسهرنا نرقص ونغني إلى أن ذكر الله الذاكرون على المآذن، فمنت لأستريح وإذا برجل قد أيقظني وقال: إن الله تعالى قد قبض فلاناً الولي، وأقامك مقامه، فسر إلى فلان بن فلان صاحب الزورق إن الشيخ أودع لك عنده كيت وكيت. قال: فدفعته له فخلع أثوابه الرقاق ورمي بها في الزورق، وقال: تصدق بها على من شئت، وأخذ الركوة والعصا، ولبس المرقعة وسار وتركني أتحرق وأبكي لما حرمت من ذلك. وأقمت يومي ذلك أبكي إلى الليل، ثم نمت فرأيت رب العزة جل جلاله في النوم فقال: يا عبدي، أثقل عليك إن منتت على عبد عاصٍ بالرجوع إليّ؟ إنما ذلك فضلي أوتيته من أشياء من عبادي، وأنا ذو الفضل العظيم.

وحكى أبو إسحاق الصعلوكي قال: خرجت سنة إلى الحج، فبينما أنا في البادية تائه، وقد جُرّ الليل^(٢)، وكانت ليلة مقمرة إذا سمعت صوت شخص ضعيف يقول: يا أبا إسحاق قد انتظرتك من الغداة، فدنوت منه فإذا هو شاب نحيف الجسم، قد أشرف على الموت، وحوله رياحين كثيرة، منها ما أعرف، ومنها ما لا أعرف، فقلت له: من أنت؟ ومن أين أنت؟ قال: من مدينة شمشاط كنت في عزة ورفعة، فطالبتني نفسي بالغبية والعزلة، فخرجت وقد أشرفت الآن على الموت فدعوت الله تعالى أن يقبض لي ولياً من أوليائه، وأرجو أن تكون أنت هو. فقلت: ألك حاجة؟ قال: نعم لي والدة وإخوة وأخوات. فقلت: هل اشتقت إليهم قط؟ قال: لا إلا اليوم اشتقت أن أشم ريحهم فهممت أريدهم فاحتوشنتي^(٣) السباع والهوام وبكين معي، وحملوا إليّ هذه الرياحين التي تراها. قال أبو إسحاق: فبينما أنا معه يرقّ له قلبي، وإذا بحية عظيمة في فمها باقة نرجس كبيرة فقال: دع ولي الله تعالى، فإن الله يغار على أوليائه. قال: فغشي عليه وغشي عليّ، فما أفقت إلا وهو قد خرجت روحه رحمه الله. قال: فدخلت مدينة شمشاط بعدما حججت فاستقبلتني امرأة بيدها ركوة ما رأيت أشبه بالشاب منها، فلما رأيتي نادى: يا أبا إسحاق ما شأن الشاب الغريب الذي مات غريباً؟ فإني منتظرتك منذ كذا، فذكرت لها القصة إلى أن قلت لها: أشم ريحهم، فصاحت آواه

(١) وطارة: ليست في المعاجم ولعلها آلة دائرية يعزف عليها (محرقة عن الإطار).

(٢) جُرّ الليل: أدلهم ظلامه.

(٣) احتوشنتي: اجتمعت حولي.

أواه قد بلغ والله الشم، ثم شهقت شهقة خرجت روحها، فخرج إليها بنات أتراب عليهم مرقعات ومروط فكفلن أمرها وتولين دفنها وهن مستترات رضوان الله على الجميع.

يا نسيماً هبَّ من وادي قبا^(١) خبريني كيف حال الغربا
كم سألتُ الدهرَ أن يجمَعنا مثلَ ما كُنَّا عليه فآبى

ويحكى أن رجلاً كان يعرف بدينار العيار، وكان له والدة صالحة تعظه وهو لا يتعظ، فمر في بعض الأيام بمقبرة فأخذ منها عظماً فتفتت في يده ففكر في نفسه. وقال: ويحك يا دينار كأني بك وقد صار عظمك هكذا رفاتاً، والجسم تراباً فندم على تفريطه، وعزم على التوبة، ورفع رأسه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ألقيت إليك مقاليد أمري فاقبلني وارحمي. ثم أقبل نحو أمه متغير اللون منكسر القلب فقال: يا أماه، ما يصنع بالعبد الآبى إذا أخذه سيده؟ قالت: يخشن ملبسه ومطعمه ويغل يديه وقدميه. فقال: أريد جبة من صوف، وأقراصاً من شعير وغلّين وافعلي بي كما يفعل بالعبد الآبى، لعل مولاي يرى ذلي فيرحمني ففعلت به ما أراد، فكان إذا جُنَّ عليه الليل، أخذ في البكاء والعيول، ويقول لنفسه: ويحك يا دينار ألك قوة على النار؟ كيف تعرضت لغضب الجبار؟ ولا يزال كذلك إلى الصباح، فقالت له أمه: يا بني ارفق بنفسك. قال: دعيني أتعب قليلاً لعلي أستريح طويلاً، يا أماه إن لي غداً موقفاً طويلاً بين يدي رب جليل، ولا أدري أيؤمر بي إلى ظل ظليل، أو إلى شر مقيل^(٢)؟! قالت: يا بني خذ لنفسك راحة. قال: لست للراحة أطلب كأنك يا أماه غداً بالخلافتك يساقون إلى الجنة، وأنا أساق إلى النار مع أهلها، فتركته وما هو عليه فأخذ في البكاء والعبادة وقراءة القرآن فقرأ في بعض الليالي: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون﴾^(٣) ففكر فيها وجعل يبكي حتى غشي عليه، فجاءت أمه إليه فنادثته فلم يجبه، فقالت له: يا حبيبي وقرّة عيني أين الملتقي؟ فقال بصوت ضعيف: يا أماه إن لم تجديني في عرصات^(٤) القيامة فأسألي مالكا خازن النار عني. ثم شهق شهقة فمات رحمه الله تعالى. ففسلته أمه وجهازته وخرجت تنادي: أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار، فجاء الناس من كل جانب فلم ير أكثر جمعاً ولا أغزر دعماً من ذلك اليوم. فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة فرآه يتبختر في الجنة، وعليه حلة خضراء، وهو يقرأ الآية ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون﴾ ويقول: وعزته وجلاله سألني، ورحمني، وغفر لي، وتجاوز عني، ألا اخبروا عني والدتي.

وحكى عن الحسن البصري قال: نزل سائل بمسجد فسأل الناس أن يطعموه كسرة فلم يطعموه. فقال الله تعالى لملك الموت: اقبض روحه فإنه جائع، فقبض روحه فلما جاء المؤذن رآه ميتاً فأخبر الناس بذلك، فتعاونوا على دفنه. فلما دخل المؤذن المسجد وجد الكفن في المحراب مكتوباً عليه: هذا الكفن مردود عليكم، بشن القوم أنتم، استطعمكم فقير فلم تطعموه، حتى مات جوعاً من كان من أحبائنا لا نكله إلى غيرنا.

وحكى أبو علي المصري قال: كان لي جار شيخ يغسل الموتى فقلت له يوماً: حدثني بأعجب ما رأيت من

(١) قبا: اسم موضع بفرغانة.

(٢) مقيل: لا معنى للجملة إلا إذا كانت مقبل.

(٣) سورة: الحجر، الآيات: ٩٢ - ٩٣.

(٤) عرصات: ساحاتها.

الموتى . فقال : جاءني شاب في بعض الأيام مليح الوجه، حسن الثياب فقال لي : أتغسل لنا هذا الميت؟ قلت : نعم . فتبعته حتى أوقفني على باب فدخل هنيهة، فإذا بجارية هي أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهي تمسح عينها . فقالت : أنت الغاسل؟ قلت : نعم . قالت : باسم الله أدخل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فدخلت الدار، وإذا أنا بالشاب الذي جاءني يعالج سكرات^(١) الموت وروحه في لبتة^(٢)، وقد شخص بصره، وقد وضع كفه وحنوطه عند رأسه فلم أجلس إليه حتى قبض . فقلت سبحان الله هذا ولي من أولياء الله تعالى حيث عرف وقت وفاته، فأخذت في غسله وأنا أرتعد، فلما أدرجته أتت الجارية وهي أخته فقبلته، وقالت : أما أني سألحق بك عن قريب . فلما أردت الانصراف شكرت لي وقالت : أرسل إليّ زوجتك إن كانت تحسن ما تحسنه أنت . فارتعدت من كلامها وعلمت أنها لاحقة به، فلما فرغت من دفنه جئت أهلي فقصصت عليها القصة وأتيت بها إلى تلك الجارية فوقفت بالباب واستأذنت فقالت : باسم الله تدخل زوجتك . فدخلت زوجتي وإذا بالجارية مستقبلة القبلة وقد ماتت فغسلتها زوجتي وأنزلتها على أخيها رحمة الله عليهما .

أحبابنا بتتم عن الدار فاشتكت	لعبدكم أصلها وضحاها ^(٣)
وفارقتم الدار الأنيسة فاستوت	رسوم مانيها وفاح كلاها ^(٤)
كانكم يوم الفراق رحلتم	بنومي فعيني لا تصيب كراهها
وكنت شحيحاً من دموعي بقطرة	فقد صرت سمحاً بعدكم بدماها
يراني ساماً خليلي يظن بي	سروراً وأحشاي السقام ملاحها
وكم ضحكة في القلب منها حرارة	يشب لظاها لو كشفت غطاها
رعى الله أياماً بطيب حديثكم	تقضت وحيها الحيا وسقاها
فما قلت إياها بعدها لمسامر	من الناس إلا قال قلبي آها

وحكى سري السقطي رحمه الله تعالى قال : أرقت ليلة، ولم أقدر على النوم، فلما طلع الفجر صليت فلما أصبحت دخلت المارستان^(٥) فإذا أنا بجارية مقيدة مغلولة وهي تقول :

تغلُّ يدي إلى عنقي	وما خاننت وما سرقت
وبيّن جوانحي كبد	أحسُّ بها قد احترقت

قال : فقلت للمقيم : من هذه الجارية؟ قال : هذه جارية اختلَّ عقلها فحبست لعلها تصلح، فلما سمعت كلامه

تبسمت وقالت :

معشَرَ الناس ما جنتُ ولكن	أنا سكرانة وقلبي صاحي
---------------------------	-----------------------

(١) سكرات : نزعات الروح .

(٢) لبتة : منخره .

(٣) أصلها وضحاها : أي أطراف اليوم .

(٤) وفاح كلاها : صارت مستوية فيحاء .

(٥) المارستان : المشفى وكما يبدو المخصص للأمراض العقلية .

لِمَ غَلَّتْ يَدِي وَلَمْ آتِ ذَنْبًا
أَنَا مَفْتُونَةٌ بِحَبِّ حَبِيبٍ
غَيْرِ هَتَكِي فِي جَبِّهِ وَافْتِضَاحِي
لَسْتُ أَبْغِي عَنْ بَابِهِ مِنْ بَرَّاحٍ^(١)
وَارْتِضَاؤُهُ لِنَفْسِهِ مِنْ جِنَاحٍ
مَا عَلَى مَنْ أَحَبَّ مَوْلَى الْمَوَالِي

وقال: فلما سمعت كلامها بكيتُ بكاءً شديداً فقالت: يا سري، هذا بكاؤك: من الصفة، فكيف لو عرفته حق المعرفة؟ قال: فبينما هي تكلمني إذ جاء سيدها فلما رأني عظمي. فقلت: والله هي أحق مني بالتعظيم فلم فعلت بها هذا؟ قال: لتقصيرها في الخدمة، وكثرة بكائها، وشدة حنينها وأينها كأنها تكلى، لا تنام ولا تدعنا ننام، وقد اشتريتها بعشرين ألف درهم لصناعتها فإنها مطربة.

وَحَقَّكَ لَا نَقَضْتُ الدَّهْرَ عَهْدًا
مَلَأَتْ جِوَانِحِي وَالْقَلْبَ وَجَدًا
وَلَا كَدَرْتُ^(٢) بَعْدَ الصَّفْوِ وَدَا
فَكَيْفَ أَقْرَأُ يَا سَكْنِي وَأَهْدَا
تَرَكَ رَضِيئَتِي بِالْبَابِ عَبْدًا
فِيَا مَنْ لَيْسَ لِي مَوْلَى سِوَاهُ

فقلت لسيدها: اطلقها وعليّ ثمنها، فصاح: واقفراه من أين لك عشرون ألفاً يا سري. فقلت لا تعجل عليّ. فقال: تكون في المارستان حتى توفي ثمنها، فقلت: نعم. قال سري: فانصرفت وعيني تدمع قلبي يخشع وأنا والله ما عندي درهم من ثمنها. فبت طول ليلتي أتضرع إلى الله تعالى. فإذا بطارق يطرق الباب ففتحت ودخل عليّ رجل ومعه ستة من الخدم ومعهم خمس بدر، فقال: أتعرفني يا سري؟ قلت: لا. قال: أنا أحمد بن المثنى كنت نائماً، فهتف بي هاتف وقال لي: يا أحمد، هل لك في معاملتنا؟ فقلت: ومن أولى مني بذلك؟ فقال: احمل إلى سري السقطي خمس بدر من أجل الجارية الفلانية، فإن لنا بها عناية. قال سري: فسجدت لله شكراً، وجلست أتوقع طلوع الفجر، فلما طلع صلينا وذكرنا وانصرفنا نحوها فسمعناها تقول:

قَدْ تَصَبَّرْتُ إِلَيْهِ أَنْ
ضَاقَ مِنْ غَلِي وَقَيْدِي
عَيْلٌ مِنْ حَبِّكَ صَبْرِي
وَامْتِهَانِي مِنْكَ صَدْرِي
لَيْسَ يَخْفِي عَنْكَ أَمْرِي
يَا مُنَى قَلْبِي وَذُنُخْرِي
أَنْتَ قَدْ تَعْتَقُ رُقْيِي
وَتَفْكَ الْيَوْمَ أُنْسْرِي

قال سري: فبينما أنا أسمعها، وإذا بمولاها قد جاء وهو يبكي. فقلت: لا بأس عليك قد جئناك برأس مالك وريح عشرة آلاف درهم، فقال: والله لا فعلت ذلك، قلت: نزيك، قال: والله لو أعطيتني ما بين الخافقين ما فعلت، وهي حرة لوجه الله تعالى. قال: فتعجبت من ذلك، وقلت: ما كان هذا كلامك بالأمس. فقال: حبيبي لا توبخني فالذي وقع لي من التوبيخ كفاني، وأشهدك أنني قد خرجت من جميع مالي صدقة في سبيل الله تعالى، وأني هارب إلى الله تعالى، فبالله لا تردني عن صحبتك. فقلت: نعم. ثم التفت فرأيت صاحب المال يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: يا أستاذي ما قبلني مولاي لما ندبني إليه، ورد عليّ ما بذلت. أشهدك أنني قد خرجت من جميع ما أملكه لله تعالى في سبيل الله، وكل عبد أملكه وجارية أحرار لوجه الله تعالى. قال سري: فقلت: ما أعظم بركتك يا جارية. قال: فترعنا

(١) براح: مغادرة.

(٢) كدرت: عكرت.

الغل من عنقها، والقيد من رجلها، وأخرجناها من المارستان فتزعت ما كان عليها من ناعم الثياب وليست خماراً من صوف ومدرعة من شعر، وولت. قال سري: فتوجهت أنا ومولاها وصاحب المال إلى مكة، فبينما نحن نظوف إذا سمعنا صوتاً فتبعناه فإذا هي امرأة كالخيال، فلما رأني قالت: السلام عليك يا سري. فقلت لها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، مَنْ أنت؟ فقالت: لا إله إلا الله، وقع الشك بعد المعرفة، فتأملتُها فإذا هي الجارية. فقلت لها: ما الذي أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق؟ فقالت: أنسي به، ووحشتي من غيره. ثم توجهت إلى البيت وقالت: إلهي لِمَ تخلفني^(١) في دار لا أرى فيها أنيساً، قد طال شوقي إليك، فعجل قدومي عليك، ثم شهمت شهقة وخزت ميتة رحمة الله تعالى عليها. فلما نظر إليها مولاها بكى وجعل يدعو ويضعف كلامه إلى أن خرَّ إلى جانبها ميتاً رحمة الله عليه فدفاهما في قبر واحد.

بحرممة ما قد كان بيني وبينكم
ولا تحرموني نظرة من جمالكم
فوالله ما يهوى فؤادي سواكم
من السوء إلا ما رجعتم إلى وصل
فلن تجدوا عبداً ذليلاً لكم مثلي
ولو رشقوه بالأسنة والنبل^(٢)

وحكي أنه كان في زمن بني إسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد وكان قد سخر الله له سحابة تسير معه حيث يسير، فاعتراه فتور^(٣) في بعض الأيام، فأزال الله عنه سحابته، وحجب إجابته، فكثر لذلك حزنه وشجونه، وطال كمده وأتنيه وما زال يشتاق إلى زمن الكرامة ويكي، ويتأسف، ويتحسر ويتلهف، فقام ليلة من الليالي فصلى ما شاء الله، وبكى وتضرع، ودعا الله تعالى ونام. فقيل له في المنام: إذا أردت أن يرد الله تعالى عليك سحابتك فأنتِ الملك الفلاني في بلد كذا، وأسأله أن يدعو الله لك أن يرد عليك سحابتك. قال: فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى تلك البلدة التي ذكرت له في المنام فدخلها، وسأل مَنْ يرشده إلى قصر الملك، فجاء إلى القصر وإذا عند بابهِ غلام جالس على كرسي عظيم من الذهب الأحمر، مرصع بالدر، والجوهر، والناس بين يديه يسألونه حوائجهم وهو يصرف الناس. فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه فقال له الغلام: من أين أنت؟ وما حاجتك؟ فقال: من بلاد بعيدة وقصدي الاجتماع بالملك. فقال له الغلام: لا سبيل لك إليه اليوم فسل حاجتك أقضها لك أن استطعت. فقال: إن حاجتي لا يقضيها إلا الملك، فقال الغلام: إن الملك ليس له إلا يوم واحد في الجمعة يجتمع إليه الناس فيه، فاذهب حتى يأتي ذلك اليوم، فانصرف الرجل إلى مسجد دائر^(٤) وأقام يعبد الله تعالى فيه، وأنكر على الملك لاحتجابه عن الناس، فلما كان ذلك اليوم الذي يجلس فيه الملك جاء إلى القصر فوجد خلقاً كثيراً عند الباب ينتظرون الإذن فوقف مع جملة الناس، فلما خرج الوزير أذن للناس في الدخول فدخل أرباب الحوائج ودخل صاحب السحابة معهم، وإذا بالملك جالس وبين يديه السحابة، فلما نظر إليه الملك قال: مرحباً بصاحب السحابة. اجلس حتى أفرغ من حوائج الناس وانظر في أمرك، قال: فتحير صاحب السحابة في أمره. فلما فرغ الملك من حوائج الناس قام من مجلسه فأخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه إلى قصره، ثم مشى به في دهليز القصر فلم يجد في طريقه إلا مملوكاً

(١) تخلفني: تجعلني خليفاً لك.

(٢) النبل: السهام.

(٣) فتور: كسل.

(٤) دائر: ممح.

واحدًا، فسار به حتى انتهى إلى باب من جريد، وإذا به بناء مهديم، وحيطان مائلة، وبيت خرب فيه برش^(١)، وليس هناك ما يساوي عشرة دراهم إلا سجادة خلقة، وقدح للوضوء، وحصير رثة، وشيء من الخوص فانخلع الملك من ثياب الملك، ولبس مرقعة من صوف، وجعل على رأسه قلنسوة من شعر، ثم جلس وأجلس صاحب السحابة ونادى: يا فلانة قالت: ليك. قال: أتدرين مَنْ هو الليلة ضيفنا. قالت: نعم هو صاحب السحابة، فدعا بها لحاجة فخرجت، فإذا هي امرأة كالشن^(٢) البالي عليها مسح من شعر خشن وهي شابة صغيرة. قال الرجل: فالتفت إليّ الملك وقال: يا أخي نطلعك على حالنا أو نقضي حاجتك وتنصرف. فقلت: والله لقد شغلني حالكما عما جئت بسببه، فقال الملك: الله يعلم، إنه كان لي في هذا الأمر آباء كرام صالحون يتوارثون المملكة كابرًا عن كابر، فلما توفوا إلى رحمة الله تعالى، ووصل الأمر إليّ بغض الله إليّ الدنيا وأهلها فأردت أن أسبح في الأرض، وأترك الناس ينظرون لهم من يسوس أمرهم فيملكونه عليهم، فخفت عليهم دخول الفتنة وتضييع الدين، والشرائع، وتبديل شمل الدين فبايعوني وأنا والله كاره. فتركت أمورهم على ما كانت عليه وجعلت السماط على عادته، والحراس على حالها، والممالك على دأبها، ولم أغير شيئاً، وأعدت الممالك على الأبواب بإرهاباً لأهل الشرور، وردعاً عن أهل الخير، وتركت القصر مزيناً على حاله، وفتحت له باباً وهو الذي رأيته يوصلني إلى هذه الخربة، فأدخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا، وأضفر الخوص^(٣) وأبيعه، وأتقوت من ثمنه أنا وزوجتي هذه التي رأيته وهي ابنة عمي زهدت في الدنيا كزهدي، واجتهدت حتى صارت كالشن البالي، والناس لا يعلمون ما نحن فيه، ثم إنني أقمت لي نائباً ينوب عني طول الجمعة^(٤) وعلمت أنني مسؤول، فجعلت لي يوماً في الجمعة أبرز للناس فيه، وأكشف عن مظالمهم كما رأيت. وأنا على هذه الحالة مدة فأقم عندنا يرحمك الله حتى نبيع خويصاتنا، ونبتاع من ثمنها طعاماً وتفطر معنا وتبيت عندنا الليلة ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى. فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خماسي العمر فأخذ ما عملاه من خوص، وسار به إلى السوق فباعه واشترى من ثمنه خبزاً وفولاً، واشترى بياقي ثمنه خوصاً، فلما كان عند الغروب أفطرا وأفطرت معهما وبت عندهما. قال: فقاما في نصف الليل يصليان ويكيان فلما كان السحر قال الملك: اللهم إن عبدك هذا يطلب منك رد سحابتة، وإنك قد دللته علينا، اللهم اردد لها عليه إنك على كل شيء قدير، والمرأة تؤمن على دعائي، وإذا بالسحابة قد طلعت من قبل السماء فقال لي: لك البشارة بقضاء حاجتك، وتعجيل إجابتك، قال فودعتهما وانصرفت والسحابة معي كما كانت، فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بسرهما شيئاً إلا أعطاني إياه رحمة الله تعالى عليهما.

ولازم البابَ حتى تلبغ الأملا
واحمل لمرضاتي في الحب كل بلا^(٥)
صب لثقل الهوى والوجد قد حملا
فانهض وكن رجلاً بالسعي قد وصلا

استعمل الصبرَ تجني بعده العسلا
ومرغ الخد في أعتابه سحراً
فما يفوز بوصولي يا أخي سوى
هذا الحبيب ينادي في الدجى سحراً

(١) برش: تُطع.

(٢) كالشن: القرية.

(٣) الخوص: ورق النخل.

(٤) الجمعة: أي الأسبوع.

(٥) مقصور: بلاء.

وحكي عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: خرجت إلى مكة حاجاً فبينما أنا سائر، إذ رأيت شاباً ساكتاً لا يذكر الله تعالى. فلما جن الليل رفع وجهه نحو السماء، وقال: يا من لا تسره الطاعات ولا تضره المعاصي، هب لي ما لا يسرك، واغفر لي ما لا يضرك، ثم رأيت بهذي الحليفة وقد لبس احرامه والناس يلثون، وهو لا يلبي. فقلت: هذا جاهل. فدنوت منه فقلت له: يا فتى، قال: لبيك. قلت: لِمَ لا تليبي، فقال: يا شيخ وما تغني التلبية وقد بارزته بذنوب سالفات وجرائم مكتوبات؟ والله إني لأخشى أن أقول، لبيك فيقول لا لبيك، ولا سعديك، لا أسمع كلامك ولا أنظر إليك. فقلت له: لا تقل ذلك، فإنه حلِيم، إذا غضب رضي، وإذا رضي لم يغضب، وإذا وعد وفّي ومتى توعد عفا، فقال: يا شيخ أتشير عليّ بالتلبية؟ قلت: نعم. فبادر إلى الأرض واضطجع ووضع خده على التراب، وأخذ حجراً فوضعه على خده الآخر وأسبل دموعه، وقال: لبيك، اللهم لبيك قد خضعت لك وهذا مصرعي بين يديك. فأقام كذلك ساعة ثم مضى، فما رأيت إلا بمنى وهو يقول: اللهم إن الناس قد ذبحوا ونحروا، وتقربوا إليك، وليس لي شيء أتقرب به إليك سوى نفسي، فتقبلها مني. ثم شهق شهقة وخر ميتاً رحمة الله تعالى عليه.

وحكي أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبي عبد الله الأندلسي، وكان شيخاً لكل من بالعراق، وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ، وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات. فخرج في بعض السنين إلى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلي وغيرهما من مشايخ العراق. قال الشبلي: فلم نزل في خدمته ونحن مكرمون بعناية الله تعالى، إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار. فطلبنا ماء نتوضأ به فلم نجد، فجعلنا ندور بتلك القرية، وإذا نحن بكنائس، وبها شمامسة وقساوسة، ورهبان وهم يعبدون الأصنام، والصلبان فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم، ثم انصرفنا إلى بئر في آخر القرية، وإذا نحن بجوارٍ يستقي الماء على البئر، وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن ولا أجمل منها، وفي عنقها قلاند الذهب. فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقال: هذه ابنة من؟ فقيل له: هذه ابنة ملك هذه القرية، فقال الشيخ: فليم لا يدلّها أبوها ويكرمها ويدعها تستقي الماء، فقيل له: أبوها يفعل ذلك بها حتى إذا تزوجها رجل أكرمه، وخدمته ولا تعجبها نفسها. فجلس الشيخ ونكس رأسه، ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل، ولا يشرب، ولا يكلم أحداً غير أنه يؤدي الفريضة والمشايخ واقفون بين يديه، ولا يدرون ما يصنعون.

قال الشبلي: فتقدمت إليه وقلت له: يا سيدي إن أصحابك ومريدك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام، وأنت ساكت لم تكلم أحداً. قال: فأقبل علينا، وقال: يا قوم اعلّموا أن الجارية التي رأيتها أمس قد شغفت بها حباً، واشتغل بها قلبي، وما بقيت أفدر أفارق هذه الأرض. قال الشبلي: فقلت له: يا سيدي أنت شيخ العراق، ومعروف بالزهد في سائر الآفاق، وعدد مريدك اثنا عشر ألفاً، فلا تفضحنا وإياهم، بحرمة الكتاب العزيز. فقال: يا قوم جرى القلم بما حكم، ووقعت في بحار العدم، وقد انحلت عني عرى^(١) الولاية، وطويت عني أعلام الهداية. ثم إنه بكى بكاء شديداً، وقال: يا قوم انصرفوا فلقد نفذ القضاء والقدر. فتعجبنا من أمره، وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكروهه، ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب، ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد، فخرج الناس إلى لقائه، ومريدوه في جملة الناس فلم يروه، فسألوا عنه فعرفناهم بما جرى، فمات من مريديه جماعة كثيرة حزناً عليه وأسفاً، وجعل الناس يبكون،

(١) عرى: فُكَّت مقاليدها.

ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم، وغلقت الرباطات^(١) والزوايا والخواتق^(٢)، ولحق الناس حزن عظيم. فأقمنا سنة كاملة وخرجت مع بعض أصحابي نكشف خبره، فأتينا القرية فسألنا عن الشيخ فقيل لنا إنه في البرية يرعى الخنازير. قلنا: وما السبب في ذلك؟ قالوا: إنه خطب الجارية من أبيها فأبى أن يزوجه إلا ممن هو على دينها. بس العباءة، ويشد الزنار، ويخدم الكنائس، ويرعى الخنازير ففعل ذلك كله. ها هو في البرية يرعى الخنازير. قال شبلي: فانصدعت قلوبنا. وانهملت بالبكاء عيوننا، وسرنا إليه وإذا به قائم قدام الخنازير، فلما رأنا نكس رأسه، وإذا عليه قلنسوة النصارى، وفي وسطه زنار وهو متوكيء^(٣) على العصا التي كان يتوكأ عليها إذا قام إلى المحراب فسلمنا عليه، فرد علينا السلام فقلنا: يا شيخ ما ذاك؟ وماذا؟ وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم؟ فقال: يا إخواني وأحبائي ليس لي من الأمر شيء، سيدي تصرف في. كيف شاء وحيث أراد أبعدني عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبائه، فالحذر الحذر يا أهل وداده من صده وإبعاده، والحذر الحذر يا أهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء. ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: يا مولاي ما كان ظني فيك هذا. ثم جعل يستغيث ويكي نادى: يا شبلي أتعظ بغيرك. فنادى الشبلي بأعلى صوته: بك المستعان، وأنت المستغاث، وعليك التكلان^(٤) أكشف عنا هذه الغمة بحلمك فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك. قال: فلما سمعت الخنازير بكاءهم وضجيجهم أقبلت إليهم، وجعل تمرغ وجهها بين أيديهم، وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال.

قال الشبلي: فظننت أن القيامة قد قامت، ثم إن الشيخ بكى بكاء شديداً، قال الشبلي: فقلنا له: هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد؟ فقال: كيف لي بذلك، وقد استرعيت الخنازير، بعد أن كنت أروع القلوب؟ فقلت: يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرأه بالسبع، فهل بقيت تحفظ منه شيئاً؟ فقال: نسيت كنهه إلا آيتين. فقلت وما هما قال: قوله تعالى: ﴿ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾^(٥) والثانية قوله تعالى: ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السبيل﴾^(٦) فقلت: يا شيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ فهل تحفظ منها شيئاً؟ قال: حديثاً واحداً وهو قوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه».

قال الشبلي: فتركناه وانصرفنا ونحن متعجبون من أمره فسرنا ثلاثة أيام وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر، وطلع وهو يشهد شهادة الحق، ويجدد إسلامه. فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور، فنظر إلينا وقال: يا قوم أعطوني ثوباً طاهراً، فأعطيناه ثوباً فلبسه، ثم صلى وجلس فقلنا له: الحمد لله الذي ردك علينا وجمع شملنا بك، فصِفْ لنا ما جرى لك، وكيف كان أمرك. فقال: يا قوم لما وليتم من عندي سألته بالوداد القديم، وقلت له: يا مولاي أنا المذنب الجاني، فعفا عني بجموده، وبستره غطاني. فقلنا له: بالله نسألك هل كان لمحتك من سبب؟ قال: نعم، لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حول الكنائس، قلت في نفسي ما قدر هؤلاء عندي، وأنا مؤمن موحد،

- (١) الرباطات: مدرسة أو مسجد يجتمع فيها أهل العبادة.
- (٢) مفردها خاتقاه: بقعة يسكنها أهل الصلاح من الصوفية.
- (٣) متوكيء: مستند.
- (٤) التكلان: الاتكال والاعتماد.
- (٥) سورة: الحج، الآية: ١٨.
- (٦) سورة: البقرة، الآية: ١٠٨.

فنوديت في سري ليس هذا منك، ولو شئت عرّفناك، ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبي فكان ذلك الطائر هو الإيمان.

قال الشبلي: ففرحنا به فرحنا شديداً وكان يوم دخولنا يوماً عظيماً مشهوداً وفتحت الزوايا، والرباطات والخواتق، ونزل الخليفة للقاء الشيخ، وأرسل إليه الهدايا، وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفاً، وأقام على ذلك زماناً طويلاً، ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث، وزاده على ذلك. فبينما نحن جلوس عنده في بعض الأيام بعد صلاة الصبح، وإذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية فنظرت من الباب فإذا شخص ملتف بكساء أسود. فقلت له: ما الذي تريد؟ فقال: قل لشيخكم إن الجارية الرومية التي تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك. قال: فدخلت فعرفت الشيخ فاصفر لونه، وارتعد، ثم أمر بدخولها فلما دخلت عليه بكت بكاء شديداً. فقال لها الشيخ: كيف كان مجيئك ومن أوصلك إلى هنا؟ قالت: يا سيدي لما وليت من قريتنا جاءني من أخبرني بك، فبت ولم يأخذني قرار، فأريت في منامي شخصاً وهو يقول: إن أحببت أن تكوني من المؤمنات فاتركي ما أنت عليه من عبادة الأصنام، واتبعي ذلك الشيخ، وادخلي في دينه. فقلت: وما دينه؟ قال: دين الإسلام. قلت: وما هو؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقلت: كيف لي بالوصول إليه؟ قال: اغمضي عينيك واعطيني يدك ففعلت، فمشى قليلاً ثم قال: افتحي عينيك. ففتحتهما فإذا أنا بشاطئ الدجلة. فقال: امضي إلى تلك الزاوية واقربي الشيخ مني السلام، وقولي له إن أخاك الخضر يسلم عليك. قال: فأدخلها الشيخ إلى جواره، وقال: تعبدي ههنا. فكانت أعبد أهل زمانها، تصوم النهار، وتقوم الليل حتى نحل جسمها وتغير لونها فمرضت مرض الموت، وأشرفت على الوفاة ومع ذلك لم يرها الشيخ فقالت: قولوا للشيخ يدخل عليّ قبل الموت. فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها فلما رأته بكت. فقال لها: لا تبكي. فإن اجتماعنا غداً في القيامة، في دار الكرامة، ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى. فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياماً قلائل حتى مات رحمة الله تعالى عليه.

قال الشبلي: فرأيت في المنام وقد تزوج بسبعين حوراء، وأول ما تزوج بالجارية، وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.